صدى الحرية

أسبوعية ثورية اجتماعية
توعوية منوعة

للتواصل وإرسال المشاركات :
Facebook / SadaALhoryeh **
freequd@gmail.com

فريق QMT قدسيا الإعلامي

صدى الحرية | العدد 90 | الجمعة 12 | كانون الأول | 2014

قدسيا... قصة حب
المذرائعيون الجدد والثورة
موالاة ومعارضة
المبرة تواجه الدولار
هل مرّ قايين..
أين يقودنا الكلام..

قدسيا... قصة حب تنتهي بالحرق!!

حكايات الحب تنتهي غالباً كما في الأساطير بالزواج، في مملكة تدمر كان هناك ما يعرف بزواج "النحب"، في قدسيا تنقلب الصورة، ويصبح الحب استبداداً وإرغاماً، بل تتحول سطوة السلاح إلى قوة مدمرة لا يمكن اعتراضها وإلا... وإلا... ولا أحد يعلم ما قد تخفيه ورائها.

الظاهرة متكررة في الحب وفي غيرها، ينسى النظام المتربص قريباً ونتعامل قيما بيننا "بالعنتريات" الفارغة، والعقول المترعة بكؤوس من خمر القوة المزيفة، التي ربما تنهار أمام أول طلقة.

مصيبتنا أننا لا نتحدث عن المجاهدين، بل عن أولئك الأوساخ الذين دأبوا أن يرتعوا في ساحة الجهاد، وأخطئنا لما تركناهم لغايتهم، ليس تبرئةً لساحة الثورة، لكنه الحال التي تصرخ وتأن في هذه المدينة الصغيرة.

حقيقةً وقف القلم عاجزاً عن الوصف، لكني تساءلت: ((ما الذي قدمه "مولانا الأفيوني" مثلاً خلال تلك السنوات _ هو وأمثاله_ من تهذيب للنفوس، وسلوكيات صوفية وروحانية، دون أن ينزلوا إلى الشارع، ويتعرفوا على أوجاع المجتمع؟))..... اليوم ما عاد المر مهماً فقد انهار هذا الصنم أيضاً، كغيره، لكنها للتذكرة.

تلك مرحلةٌ مضت، وبدأ فجرٌ يلوح في الأفق، فماذا قدمنا؟ سؤالٌ عميق، غير أن خلافاتنا، كانت الأولى في أولوياتنا، وكلٌ يغني على ليلاه!!

المثقف يسعى لتعزيز اسمه في عواصم العالم، والانتهازيون يتربصون الفرص، وآخرون يتباكون على من رحلوا.... وحدهم العاملون يتحملون المصاعب بصمتٍ ودون ريبةٍ بالنصر والفرج.

بياناتٌ تتلوها بيانات، وهموم الناس بازدياد، قطعاً لم تقم الثورة لمعالجة فساد المجتمع بدايةً، لكنها اليوم معنيةٌ قبل غيرها بتحمل هذا العبء، ولعلها منةٌ من الله تبارك وتعالى أن تنتهي الثورة وقد أعدت الأمة لخيرٍ أعظم.

لعل العاطفة تجلت بأسلوبي هذه المرة، إلا أنني أردت دغدغة عواطف الثوار "الأشراف" لبدايةٍ جديدة، وتحمل مسؤولياتهم تجاه أفراد مجموعاتهم، وإصلاح البيت يجب أن يتزامن مع ثورتنا على نظام الطاغية، إذ إن كل هذه الثغرات والأخطاء ما هي إلا رواسب ونجاساتٌ خلفتها السنوات الطويلة، ومما لا شك فيه أنها لن تنتهي بليلةٍ وضحها، لكن.. المهم أن تبدأ الخطوة الأولى، ولنكف عن التململ والشكوى والعجز.

ما هي الخطوة الأولى؟ تنظيف المجموعات من كل منافقٍ وكاذب ومشكوكٍ فيه، فالغلبة للإيمان بالقضية النابع من عقيدة صحيحة، وليس من كثرتنا، وتجريدهم من سلاحهم الذي انقلب إلى بلاء.

الخطوة الثانية لا تقال في سطور، إنها واجبٌ معروف وله مكانه الذي يقال فيه.

ولا يفوتنا أن نذكر بهموم الناس والاقتراب من مشاكلهم عن كثب، لا ننتظر لجنة مصالحة وهمية تحل مشاكلنا وهي أساساً بذرةٌ ولدت من زيجةٍ غير شرعية، وأبٍ غير شرعي.

أما ما يختصر الحادثة فهي على النحو التالي:

قدم لتلك العائلة النازحة بيتاً يؤويهم... ما هي إلا مدة حتى أحب ابنتهم ... يخطبها من أهلها ... وبسبب عدم التوافق تفسخ الخطبة... لكن بطولة الرجل الثورية وكرامته التي مرغت في التراب فهو من جيش الحب "الحر" طبعاً، ولا يمكن لأحدٍ أن يرفضه يهدد ويتوعد فإما القبول به، وإما تفجير المنزل، إلا أن مانعاً منعه وقام بحرقه وحوله إلى رماد.

ليست مجرد حكاية تسرد، إنها تعبيرٌ عن واقعٍ نعيشه، يحتاج لعلاج.

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾. ولنتوقف عند اعملوا كأمرٍ إلهي يستلزم الإجابة: لبيك يا ربنا دون أن نلتفت إلى الوراء.

بين هذه السطور وجب التنويه إلى أن المجلة وصلت إلى عددها التسعون ولله الحمد وبجهدٍ نسأل الله أن يباركه ويجعله خالصاً له تعالى.

موالاة ومعارضة

كلمتي هذه للموالين الحمقى مهما كانت طائفتهم التي ينتمون إليها، وهي أيضاً للمعارضين الصادقين، لا المنافقين المذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، لكي يعلمَ الجميعُ منكم أنَّ ما وصلت إليه سورية من الخراب منذ أربع سنوات يعود فَضْلُهُ إلى النظام بأركانه كلّها، ونحن حين نطلق عبارة (النظام) لا نعني بها رأس النظام بشار الأسد فقط، بل نعني بها كلَّ الذين وقفوا إلى جانبه وساندوه في باطله، سواء أكانوا من الأفراد أم المؤسسات والدول، بل يدخل في ذلك البنية الاجتماعية المفككة الهشَّة التي رَضِيَ بعضُ أقطابِها من الأفراد أن يتنعَّموا بالعيش الرغيد في حين أنَّ إخوانهم السوريين في أماكن أخرى يذوقون ويلات الانتقام والحصار والقتل بكل أنواعه، لأنَّهم خرجوا مطالبين بتغيير النظام، وأقصد بالبنية الاجتماعية الهشة أولئك الذين بات شعارهم هو شعار (جحا) في الحكاية المشهورة التي حكى فيها عن التعريص في بلده ثمَّ حارته ثمَّ قفاه، لقد بات كلُّ فرد من هؤلاء الأنانيّين كأنه في يوم الحشر لا يسأل اللهَ غيرَ نفسِهِ، ولسانُ حاله يلهجُ بقوله ((اللهم أسألك نفسي)) وقوله ((ما دخلنا يا زلمه)) ثم يختم ذلك بأنْ يُلْقِي باللائمة على الذين خرجوا بالثورة قائلا: ((ما كنّا عايشين يا أخي)) أمثاله كانوا أحياء كالبهائم يأكلون ويشربون وينعمون أما الفقير فكان لا يجد قوت يومه، ولا يسأل الناس فضولَ أموالهم من التعفُّف.

ثمَّ هل لنا أن نسأل بعد ذلك كلّه: ما المشكلةُ في أنْ يطلبَ شعبٌ تغييرَ النظام؟ وهل هذه من المحرمات أو الجرائم؟ أليس من حقّ شعبٍ أن يطلب ذلك؟ ولا سيَّما أنه بات محكوما في دولة يُفترَض أنها جمهورية بعائلة مستبدة تتوارث الملك كأننا في ملكية من الملكيات، حتى سئمَ الناس من رؤية صورة ذلك الأب المدفون وسئموا من صورة هذا الولد الأبله، أليس من حقّ النفس البشرية أن تسأم هذين الوجهين، وأن تسأم تلك الأسرة اللعينة التي لم تفارق خيال هذا الشعب قرابة أربعين سنة، فكيف يكون الحال قد مرَّتْ تلك السنوات كلها من حُكْمِ هذه الأسرة عجافاً لم تحمل إلى شعب سورية سوى الذل والانكسار والإهانة والحاجة والفاقة وتسلُّط الجهات الأمنية.

وإذا نظرنا إلى إنجازات هذه الأسرة اللعينة (أسرة الأسد) وَجَدْنا أنَّها لا تتعدى تفكيكَ بنية المجتمع السوري مناطقيّاً وطائفيّاً أومن حيث الولاء لعائلة الأسد، وما مِنْ أحدٍ خدمَ في الجيش إلا وكان السؤال الأول الذي يسأله له الضباط: ((منين هنت؟!!)). أَضِفْ إلى ذلك ما أنجزَتْه حكومةُ النظام من الإسهام تفتيت لُحْمَةِ المجتمع السوري ليسيطر عليه رجال الأمن وأصحاب الوجهات الموالين للنظام والعمائم الكبيرة الملفوفة على النفاق التي جعلها المتمشيخون على رؤوسهم في تجارتهم بالدين، وكبار التجار المتنفذين لدى النظام السارقين لدم الشعب من تجّار الحروب والأزمات وتجّار الشّدّة والرّخاء، كذلك أسهمت أسرة الأسد ونظامه في تفكيك مؤسسات الدولة ليسيطر عليها اللصوص والمنتفعون من كبار الموظفين الذين جمعوا ثرواتهم كلها من جيوب الشعب السوري ومن السرقات المشروعة (بحسب رأيهم) جهارا نهارا، فصلا عن تدهور التعليم والصحة وخراب البلاد وقتل العباد.

أليس من حقنا بعد كل ذلك أن نبحث عن وجهٍ جديدٍ يحكم البلاد بعد أن قذفَ الله بوجه حافظ في جهنم، ولماذا يكون واجباً علينا أن نصبر على خليفته الأهبل وعقبه النجس بعد كل تلك السنوات التي مضت وهو لم يطرح غير شعارات فارغة من محتواها حتى تفشَّى الاستبداد والظلم والقهر وسيطرة الأمن وسيطرة كبار رجال الدولة على الشعب والدولة، لأجل ذلك ثار المعارضون الصادقون، وأعني بالصادقين: أولئك الذين لم يتاجروا بحقوق الشعب ويركبوا موجةَ المحنة ليصبحوا وجهاء المعارضة.

من ناحية أخرى أقول: لو كان هذا النظام يحمل أدنى احترام حتى لمواليه من طائفته أو من غيرها من الطوائف لَمَا زجَّهم في هذه المحنة التي تعاني منها البلاد كلها الآن، ولو كان هذا النظام يهتم بدم أبنائه لَمَا كان أراقَها رخيصةً من أجل التمسُّك بسلطةٍ لا بد يوماً أن تزول مهما طال الزمان، إن هذا النظام لا يحترم الموالين له، ولذلك يسخِّر أرواحَهم وأولادَهم ونساءهم لخدمة أغراضه في البقاء في السلطة، فكيف تريدون منا أن نظنَّ به خيرا وهو الذي يضحّي حتى بدماء الموالين له، أليس هذا النظام هو السبب فيما يجده الموالون من الخوف والقلق على مستقبلهم ومستقبل أبنائهم بعد رحيله، أليس هو السبب في الضائقة المالية التي خنقت كل السوريين. إن نظاما لا يحترم غير نزواته في البقاء على رأس السلطة هو جدير بأن يدوس على رأسه الموالون والمعارضون معا، وما بشار الأسد سوى ولد صغير تعلَّقَ بلعبة صغيرة اسمها (الكرسي) فقرَّر من أجل لعبته الحقيرة أن يدفع بطائفته إلى بحر الدم المسفوح رخيصاً ليقتلوا شركاءهم في الوطن، وأن يدفع بالبلاد كلها إلى الخراب في كل شيء.

هل مر قايين وهابيل من قدسيا؟؟؟

لبنى

بكثيرٍ من الحنين، أتذكر أيام المظاهرات في قدسيا، كان للثورة أهداف ووسائل، أبعد ما تكون عن الضبابية، لكن جاءت الرياح بعكس ما تشتهيه السفينة، فاختلفت الوسائل، وتشوشت الرؤية، وبات الطريق إلى الهدف، أولوية على حساب الهدف ذاته.

لسنواتٍ أربع، تلاعبت بنا الظروف في قدسيا، وربما يكون الاقتحام قبل عامين، نقطةً مفصليةً بالنسبة لنا، ركبنا بعدها دوامةً من الفوضى، تركت أثرها علينا بشكل كبير، فحتى اليوم، ورغم ما عرفناه وما لم نعرفه عن تفاصيل الاقتحام، ما زال كثير من إخوتنا يتجاهلون حقيقة ما جرى، يبالغون في تخيلاتهم، متناسين القضية الأولى للثورة، والمبرر الأول لكل ما نفعله ونؤمن به.

قدسيا يا سادة، بلدةٌ صغيرة، كان لها الشرف في استضافة كل من قصدها، منذ فعل العمران فيها ما فعل، وذاع صيتها بما أكرمها الله به، من جو جميل، وطبيعة جذابة، إلى الرزق الكبير والخير الوافر، حتى أن كثيراً من العائلات والتجار كانوا يتباهون بشرائهم بيتاً أو محلاً فيها، لذا لم يكن من الغريب أو المستهجن، أن يقصدها المتضررون والمهجرون من مختلف المحافظات والمناطق، هم يدركون أنها لن تغلق أبوابها في وجه أحد.

بالطبع، كان لهذا التدفق الكبير، في ظروفٍ يعرفها الجميع، آثارٌ معروفة أيضاً، فمن الطبيعي أن تختلف العادات ووجهات النظر وأساليب العيش، وهذا ولّد مشكلاتٍ كثيرة، تجاوزها أبناء قدسيا وضيوفها الغوالي ببساطة، لكن المشكلة لم تكن هنا حقيقةً، وإن لمح البعض لذلك.

ظهرت مشكلاتٌ عديدة، لكن أسوأها استفحلت مع ظهور مجموعات قطاع الطرق واللصوص، من خدعونا بلباس الثوار، وكانوا أقسى علينا من النظام، دعونا لهم في البدايات، واعتقدنا أنهم سائرون في ركب الأوائل من أبناء قدسيا وشهدائها، لكنهم كانوا عكس ذلك، استمدوا قوتهم من السلاح، لا من وهج الثورة وإنسانها، نصبوا نفسهم أولياء وقادة وأصحاب مجموعاتٍ مقاتلة، لكنهم لم يقاتلوا غيرنا، تجرؤوا على حرمات منازلنا وأرزاقنا، وتمادوا حتى اعتدوا على أبناء قدسيا أيضاً، وهذا ما لا يمكن السكوت عنه أبداً.

والغريب أن يتناسى بعض من أبناء البلدة ذلك، ويصبوا جام غضبهم على أبناء قدسيا من المصالحة الوطنية، ليتهموهم زورا وكذبا بأنهم (عواينية أو مستفيدون)، والحق إن المستفيدين هم من لا تجرؤون على اتهامهم أو الوقوف بوجههم، من صوبوا أسلحتهم إلى صدوركم على مرأىً من الجميع، وبدناءة لم نشهد لها مثيلا في قدسيا، من يظنون أن الثورة لعبةٌ صبيانية في حارة صغيرة، أو مضمار لسباق سيارات، أو استعراض للعضلات والسرقات، وبعد هذا يأتيك من يطالب بالعودة إلى خطى الثورة، على حساب الخط الإصلاحي في قدسيا، وكأن الإصلاح ليس جزءاً من الثورة، إن لم يكن جوهرها الأهم، فماذا نستفيد لو تخلصنا من النظام، وجئنا بآخرين، أكثر جرماً وسفالة، ومن صنع أيدينا هذه المرة، لنصفق لهم من جديد، خوفا وخضوعا!!!!!.

الهجوم على أي فصيل كان لن يضيف شيئاً ذا قيمة، لكن هذا لا يعني الوقوف متفرجين على ما يحصل من إساءات، وحتى يجد أبناء قدسيا جميعهم، خطاً واضحاً أو منهجاً يسيرون عليه في هذه الظروف، لا بد لهم من الحوار الصريح، استناداً للثورة ومصلحة أبناء البلدة جميعهم، والوقوف أولاً بوجه أولئك، ليس بقتالهم أبداً، لكن بإقناعهم ليعودوا إلى عهد الثورة، وإلا ماذا نقول للشهداء لو عادوا يوماً!.

الذرائعيون الجدد والثورة

يعرف "هربرت بلومر" الثورة بأنها: ((تغيير مفاجئ قصدي سريع بعيد الأثر، يبتغي إعادة بناء وتنظيم النظام الاجتماعي كلياً))، ولعلنا نتوقف عند جزئية من التعريف تتحدث عن السرعة في التغيير كما يشير "بلومر"، ونطرح التساؤل التالي: لقد امتدت الثورة أربع سنوات ولم تحقق هدفها المنشود، فهل هي ثورة، كما جاء في التعريف؟ السؤال يمثل فكر "النفعيين" المؤيدين للقول بأن صدق قضية ما يكمن في مدى كونها مفيدة للناس، وهو ما ظهر عكسه. ولقد تناسى هؤلاء أن الثورة الفرنسية بدأت في العام 1789 وانتهت عام 1799م.

حال السوريين اليوم وأتحدث عن "الأثرياء" كما أتحدث عن "طوائف" بعينها، ينم عن صورةٍ أقرب لهذا المفهوم، لكن، ما الذي دعا هؤلاء لمقاومة التغيير؟ إن مقاومة التغيير طبيعة بشرية تحدث في أي مكان وزمان، فالإنسان يكره إجمالاً التغيير وذلك لعدة عوامل، كالخوف من فقدان مزايا خاصة، أو من التغيير بذاته، إلى غير ذلك من العوامل المختلفة.

علاوة على ذلك، فإن مقاومة التغيير تنسحب على مناحي الحياة المختلفة فتجدها مثلاً في الناحية الاجتماعية، حيث تخشى المجتمعات من التغيير وتسعى على مقاومته وتجنبه، مع أنه حقيقة من حقائق الحياة، ولن يستطيع أحد مقاومته أو إيقافه، وهو ما يشير له المختصون بعلم الاجتماع. الخوف أولاً وأخيراً يتبعه مبرر الحفاظ على المصالح، الدماء، مزايا معينة قد يفقدونها، الفوضى، وغيرها من المبررات التي تدفع بهؤلاء للوقوف في صف القوي وطبعاً أعني القوي من الناحية المادية وفقاً لرؤيتهم. لكن كون الثورة بعيدة الأثر، فهي الحقيقة التي يؤمن بها الثوار في سوريا، ولعل الطابع الجهادي الذي تحولت له الثورة زاد من الإيمان بهذا التغيير المستقبلي.

وعلى العكس من ذلك، التشكيك بأهمية ما يحدث والتقليل مما ستؤول له الأمور مستقبلاً لم يأتي من فراغ، بل يؤكد ابتعاد هذه الرؤى عن مصائر الطغاة في التاريخ، كما أنه وجه من وجوه العقيدة الإسلامية المشوهة، ويشكل بالنسبة لغير المسلمين غياب الرغبة بالعيش المشترك وفق مفهوم المواطنة والشراكة في بلدٍ واحد. تضارب المصالح وطبيعة مكونات المجتمع السوري كانت اللاعب الأساسي في تبني فكر معين وغض الطرف عن تواجد الحق لدى طرف دون غيره، وبينما حارب كل مكون لغايته بحسب مبرراته، ازدادت الأزمة الإنسانية بالتفاقم. البراجماتية هذه لم تنشأ في مجتمعنا العربي فضلاً عن الإسلامي، بل هي دخيلة، قد يتعامل بها البعض وفقاً لمصلحتهم الآنية، ممارسةً، لا عن معرفة علمية مسبقة.

نحن إذاً أمام ظهور طبقة غلّبت "الأنا"، وأغرقت في عالم المادية، مبتعدة عن ملامح رسمها حديث النبي ﷺ الذي شكل لبنة المجتمع الصحيح وحدد صفاتها بالجسد الواحد، هذا بالنسبة للمسلمين، أما غيرهم فالتاريخ الماضي كفيلٌ بتذكيرهم أن الوحدة الوطنية والتلاحم الاجتماعي كان قبل أن يتسلم آل الأسد السلطة. يبدو أننا أمام اعتراف لا مفر منه وهو أن "الذرائعية" متغلغلة في المجتمع، لن ينهيها ذات يوم اتفاق " طائفٍ" جديد، بل على العكس سيكون ترسيخاً لها، ولبنان خير شاهد.

أما إذا تناولنا في هذا الإطار مواقف المسلمين، فإني أرجح الابتعاد عن تعاليم الإسلام الصافي والبناء الروحي السليم طيلة تلك الحقبة بالتالي ليس مستغرباً أن يعيش الناس في جزر منعزلة، حتى داخل البيت الواحد، ومن الطبيعي تحكيم المصلحة الفردية على حساب الجماعة.

فالذرائعية، شكل من أشكال الاحتجاج والمبرر الذي يتمسك به بعض طبقات المجتمع السوري متوارين خلفه بغير تصريحٍ واضح يبرر لهم مواقفهم وفق نظرة صحيحة إذا ما قارناها مع المشهد على الأرض، وما أصاب الشام من نكبة سببتها الحرب الدائرة، لكنها نظرة بعيدة كلياً عن الأخلاق والقيم الإسلامية.

لا يهم إن كان الاعتقاد الفكري بالذرائعية موجود أو نشأ مجدداً في سوريا، الأهم أنه ممارسة فعلية تمارسها طبقات من المجتمع السوري، وجب التنبه لها واقتلاع جذورها فكرياً أولاً وقبل كل شيء.

الليرة السورية تواجه الدولار

باتت السلع في السوق السورية تقيم وفق أسعار الدولار، ارتفاعاً وهبوطاً، وتشهد فروقات بين منطقة وأخرى، تذكرك بتعامل اللبنانيين بالدولار بدلاً من الليرة اللبنانية، فالليرة السورية تشهد تقلبات أفقدتها قيمتها الشرائية وبالتالي فقدت الثقة بالتداول مع انهيارها المستمرة.

إن مراقبة أسواق العملة في الداخل السوري تجعلك تلحظ الفروق الواضحة في أسعار الدولار بين المناطق الخاضعة لسيطرة النظام، وبين تلك الخارجة عن سيطرته.

فمنذ بدء ضربات التحالف الدولي ضد تنظيم الدولة الإسلامية، قبل شهرين ونصف تقريباً، وما تلاه من صعود سريع للدولار تجاوز في ختامه الـ 200 ليرة، أصبح من الواضح أن سعر الدولار في العاصمة وباقي مناطق سوريا الخاضعة لسيطرة النظام أعلى بفارق ملحوظ من سعر الدولار في مختلف المناطق الخارجة عن سيطرة النظام، بما في ذلك مناطق سيطرة تنظيم "الدولة الإسلامية".

بحثنا عن سبب هذه الظاهرة من خلال أراء المتخصصين بأسواق العملة وكانت النتائج التالية:

يعتقد مراقبون أن ارتفاع الدولار في مناطق سيطرة النظام، خاصة في دمشق، يعود إلى سببين رئيسيين، الأول وجود البنوك وصرف رواتب الموظفين في تلك المناطق، والثاني صعوبة التداول بالعملة الأجنبية بسبب القيود التي يفرضها النظام بهذا الخصوص.

أما في المناطق الخارجة عن سيطرة النظام، فهناك تمويل خارجي يأتي لفصائل الجيش الحر وباقي التنظيمات الإسلامية، بما فيها تنظيم "الدولة الإسلامية"، مما يعني ضخ للدولار في أسواق العملة في تلك المناطق مما يؤدي لانخفاض سعره.

إن التمويل الخارجي في المناطق المحررة وتلك الخاضعة لسيطرة تنظيم "الدولة" أدى إلى محدوديةٍ في عرض الليرة السورية، مقابل عرضٍ أكبرٍ للدولار.

وهذا ما يعني أنه في حال توقف الدعم المالي الخارجي للفصائل التي تسيطر على المناطق الخارجة عن سيطرة النظام، فإن الدولار سيتعدى 300 ليرة.

إلا أن هناك سبباً آخر يعزز انخفاض سعر الدولار في المناطق الخارجة عن سيطرة النظام، وهو سهولة تداول الدولار. فالقبضة الأمنية المشددة للنظام حيال التداول بالدولار تؤدي لارتفاع أسعاره نظراً لصعوبة الحصول عليه، ويحصل العكس في المناطق الخارجة عن سيطرة النظام.

في السياق نفسه، شهد سوق العملة في العاصمة دمشق استقراراً نسبياً في الأسعار، مع تراجع طفيف في سعر الدولار الذي وصل عند الإغلاق، مساء يوم الأربعاء، إلى 203.5 ليرة شراء، و205.5 ليرة مبيع، بتراجع قدره 0.5 ليرة عن سعر مبيع الدولار مساء يوم الثلاثاء، وذلك حسب صفحات مختصة بأسعار الدولار على مواقع التواصل الاجتماعي.

وسجل الدولار في المناطق الخارجة عن سيطرة النظام أسعاراً أقل بهامش يتراوح بين 3 و5 ليرات، حيث سجّل في مدينة الباب بريف حلب (تحت سيطرة تنظيم الدولة) 200.5 ليرة شراء، و200.75 ليرة مبيع. فيما سجل في القامشلي (تحت سيطرة فصائل كردية) 199 ليرة شراء، و200 ليرة مبيع. وسجل في منبج بريف حلب (تحت سيطرة تنظيم الدولة) 200.25 ليرة شراء، و200.75 ليرة مبيع.

بدورها، رفعت شركات الصرافة المرخصة، بدمشق، أسعارها "التمييزية" للدولار، التي وصلت إلى 194.55 ليرة شراء، و196.49 ليرة مبيع.

ويبقى الحصول على الدولار "التمييزي" المدعوم من مصرف سوريا المركزي صعباً ومُقيّداً من حيث الكميات.

أين يقودنا الكلام عن العنف؟

عادةً ما تبدأ المقالات والأبحاث والدراسات عن الوضع السوري مؤخراً، بهذه العبارات: في الحرب السورية التي أودت بحياة ما يزيد على (200) ألف قتيل، و(10) مليون نازح ومهجر ولاجئ، وخسارة مليارات الدولارات.. أو في الحملة الدولية التي تقودها الولايات المتحدة ضد تنظيم "داعش" الذي يسيطر على مناطق شاسعة من سوريا التي تشهد منذ ثلاث سنوات حرباً أهلية عنيفة.. أو غيرها من الجمل، والعبارات التي تنطلق من مقاربات معرفية مشابهة، تصف ما جرى منذ منتصف آذار 2011 ، وحتى الآن، بأنه وفقط حرب داخلية عنيفة، أو حرب أهلية على مستوى وطني. في الحرب، أي حربٍ، سواء أهليةً، أو دوليةً يسقط الضحايا، مائتا ألف، مليون أو أكثر، لا يهم فموت الناس هو النتيجة الأولى للحرب، وخسارتهم لبيوتهم وأملاكهم، وتهجيرهم من مدنهم وقراهم، ليتحولوا إلى نازحين ولاجئين هو النتيجة الثانية، وتدمير البنى التحتية والمؤسسات والمنشآت، وضياع موارد البلاد وثرواتها هو نتيجتها الثالثة، وهذه النتائج وغيرها بالطبع، لا تزول أثارها بمجرد انتهاء الحرب، فهي إذ تتولد عن تعرض المجتمع بعلاقاته وبناه التحتية والفوقية لقطوع وانكسارات "نووية"، يبقى حضورها وتفاعلها مستمراً لسنوات وعقود، ما يفضي في النهاية إلى نشوء أوضاعٍ سياسيةٍ عامةٍ جديدةٍ. بالتأكيد هناك اليوم حربٌ، أو حروبٌ متوازية تجري في سوريا، وهذا مما لا يختلف عليه اثنان، لكن ما نختلف عليه، وما نحاول الوقوف عنده في التعاطي مع الشأن السوري سياسياً، أو إعلامياً، أو أكاديمياً، هو عن ماهية هذه الحرب وطبيعتها، وأسبابها، وسبل إنهاءها. ذلك أن ما يجري في سوريا ليس حرباً أهليةً، وإن اتخذ الصراع في مراحل منه صيغ الحرب الأهلية، وهي ليست حرباً دوليةً أيضاً، وإن وجدت عدة أطراف إقليمية وعالمية فاعلة مباشرة، أو بالوكالة فيها، وهي فوق ذلك ليست حرباً مع/ضد الإرهاب، وإن وجدت تنظيمات إرهابية، وقامت الولايات المتحدة بتجريد تحالفٍ دولي للقضاء عليها. ما الذي يجري في سوريا إذن؟ أو ما هي طبيعة الحرب الدائرة فيها؟ ليس من قبيل النوستالجيا، ولا من منطلق العناد والمكابرة، ولا من باب الحديث الرغبوي، أن نكرر الآن وبعد مرور ما يزيد على ثلاثة أعوام، القول أن ما يجري في سوريا هو ثورة، ذلك أن الصراع الأساسي كان بين طرفين رئيسين هما: الشعب والنظام، أو المجتمع والسلطة، بين مهمشين ومستضعفين ومستبد بهم، وبين طغمة سياسية، أمنية، اقتصادية، وهذان الطرفان لم يسقطا، ولم تتبدل مواقعهما أو موازين القوى بينهما، ولم تتغير مصالحهما وتوجهاتهما، ولم تتقارب، ولم تنقضِ علائقهما الصراعية، وكل ما حصل هو أن الشكل العام للصراع، وأدواته هي التي تغيرت، فتحول الصراع من الشكل السلمي إلى الشكل المسلح، كنتيجة طبيعية لجملة من العوامل والظروف الموضوعية، وفي سياق التطور الطبيعي للمسار التاريخي الاجتماعي للواقع السوري، قبل وخلال مراحل الثورة، وهو ما جعلها تصل إلى مرحلة الاستعصاء الحالي (ثورة/حرب).

أسباب هذه الثورة/الحرب، كانت بالأساس تراكم جملة من العوامل السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، تمثلت في مجتمع ذي ثقافة عربية إسلامية، مركب ومتعدد الطبقات والطوائف والإثنيات، متخلف اقتصادياً واجتماعياً، ويعيش حالة تأخر تاريخي، تفتقد جماعاته للكثير من الإجماعات الوطنية، يفتقر للسيادة، ولازالت أجزاء من أراضيه محتلة، محكوم من قبل سلطة عسكرية انقلابية، نسجت نواتها الصلبة روابط عائلية، طائفية، أمنية، وتحالف مصلحي مع رأس المال، اعتمدت خطاباً أيدلوجياً ديماغوجياً قومياً، وعززت سلطتها بمجموعة تحالفات، وقد قامت هذه السلطة بمصادرة المجال العام، وإنهاء

الحياة السياسية، وانتهجت سياسات اقتصادية اجتماعية، أدت إلى سحق المواطنين. في مرحلة حكم ''الأب'' تفوق العطش للقوة والقمع على التعطش للنهب العام، بينما تغلب التعطش للمال والثروة في مرحلة ''الابن''، وهذا ما دفعه إلى إجراء تحول نحو اقتصادٍ مختلفٍ، وبطبيعة الحال لم يكن السوق الحر، ولا عبر انتهاج سياسات ''نيوليبرالية''، بل كان اندفاعاً مجرداً ومحموماً نحو الهيمنة على الموارد والثروات، لذلك جرت خصصةٌ ''غير معلنةٍ'' واحتكارٌ للقطاعات الأساسية من قبل العائلة، ورجال الأعمال المحيطين بها، وفتح باب الاستثمار أمام الدول والجهات التي تحظى بقبولها، وزاد ذلك السوريين بؤساً، وتهميشاً. عندما اندلعت شرارة الربيع العربي، استشعر السوريون الأمل بالخلاص، وفي لحظةٍ عفويةٍ ودون تخطيطٍ أو تحضيرٍ مسبقٍ، أطلقوا ثورتهم الخاصة لإسقاط النظام، ثم تطورت الأحداث على النحو المعروف، والمستمر حتى الآن. لم يكن تحول الثورة نحو العنف أمراً مستغرباً، بل كان مفهوماً باعتباره استجابة منطقية لما فرضه الواقع، والثورة بالأساس هي فعل هدمٍ عنيفٍ، والكثير من ثورات العالم توسلت السلاح، هذا لم يقلل من أهميتها، ولم يبدل جوهرها، وإنما غير مظهرها الخارجي، وضاعف من أكلافها، وآثارها الجانبية، وزاد المدة المطلوبة بعدها لإعادة الاستقرار. كان من الطبيعي أيضاً، أن يتولد عن الصراع الأساسي بين الشعب والنظام، صراعات فرعية متعددة، أما ''الإرهاب'' الذي كان سابقاً الثورات بوجوده، فقد ساهمت جملة ظروف محلية، وإقليمية، ودولية في إفساح المجال لتستغل قواه الوضع، وتحاول تسيد المشهد بقوةٍ ووحشيةٍ. والآن صحيحٌ أن تشكيلات العنف، والقتل، والإرهاب تتصدر المشهد، وتحتل المساحة الأوسع من الاهتمام والتغطية، وصحيح أن مئات آلاف المواطنين قتلوا، والملايين شردوا، والاقتصاد دُمر، لكن ما ليس صحيحاً مسائلة الحرب عن ذلك، فمن قتل، وشرد، ودمر، وتسبب في كل ذلك إنما هو النظام، ولا يجوز اختصار الصراع بالعنف، وقصره عليه، ذلك أنه لا يعبر عن حقيقة الصراع، وجوهره، فهو شكله الخارجي والآني فقط، فيما تبقى الأسباب، والدوافع الحقيقية كامنة خلفه. محاولة تجهيل الفاعل، والتعامي عن حقيقة الثورة/الحرب، وأسبابها الجوهرية لن تقود إلا إلى زيادة حالة الاستعصاء، وتعقيدها، ومن هنا يمكن القول أنه لا قيمة لأية مبادرة، أو تسوية دولية يتم الوصول إليها، طالما أنها تتجاهل الحقائق، وتتعامى عنها. فالثورة/الحرب لن تنتهي إلا بالوصول للحرية، والكرامة، والعدالة، والمحاسبة، والنظام الوطني الجديد.

كاريكاتير العدد